الفصل الرابع

تراكيب الفاتحة بين البناء والفهم

توطئة :

للجملة العربية أسرارها وإعجازها بناء وفهما ، ذلك أن هناك فرقا بين بناء الجملة وفهم معنى الجملة، أو بين المبنى والمعنى، أو بين التركيب والتحليل، " أما بناء الجملة فهو إحياء كم غير منظم من المفردات بترشيح مجموعة من العلاقات النحوية بينها، وأما فهم الجملة فهو يتمثل في إدراك مجموع العلاقات الأساسية التي تربط بين مفرداتها المتفرقة " [1]، أو يتمثل فهم الجملة فى فهم المعنى الدلالى الأكبر الذى هو نتاج العلاقة بين البنية العميقة المتمثلة فى سياق الجملة (المقامى مسرح حدثها) والبنية السطحية المتمثلة فى علاقات التجاور بين الوحدات التركيبية المكونة لهذه الجملة، أى أن الذى يبنى الجملة يحتاج إلى أمرين: الأول جمهرة من المفردات الموجودة فى الذهن أو المجموعة فى المعاجم والثانى هو تحريك أو إحياء بعض هذه المفردات مستعينا بالعلاقات النحوية اللازمة لذلك، مراعيا المناسبة المعجمية بين المفردات المتجاورة المركبة للجملة.

وينبغى على من يريد فهم هذه الجملة أن يدرك العلاقات التى تربط بين مفرداتها من خلال فهم المعنى المعجمى والمعنى الوظيفى أو النحوى ومسرح الحدث، ومن ثم الوصول إلى المعنى الدلالى الأكبر الذى هو نتاج هذه الثلاثية مجتمعة، أو هو نتاج العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية، أى أن البانى ومحاول الفهم يحتاج كل منهما إلى المعنى المعجمى والمعنى الوظيفى أو النحوى والتجربة أو مسرح الحدث، بيد أن الأول يحتاج هذه الثلاثية للكتابة أو البناء، والثانى يحتاجها للفهم، وبذلك تكون وسائل أو آليات العمل واحدة والهدف المرجو مختلفا.

وإذا كان بناء الجملة من عمل الكاتب وفهمها من عمل الناقد أو المحلل أو الشارح إلا أنه عندما يحلل الناقد جملة ما ويكتب نصه التحليلى الشارح لهذه الجملة يكون قد أجرى عمليتين متلازمتين فى آن واحد الأولى تحليلية والثانية تركيبية.

إذ أن الناقد عندما يكتب نصه النقدى أو التحليلى يحلل الجملة ويحاول فهم معناها مترجما ذلك كله فى صورة جملة أو جمل هى بدورها مبان تحتاج إلى فك وتحليل، وبذلك يصبح الناقد كاتبا يحتاج إلى من يحلل نقده وكتاباته، وتستمر هذه الثنائية المتلازمة بين البناء والفهم بدون توقف، وبذلك يمكن القول إن البناء فهم والفهم بناء، فالبيت الشعرى بناء وتحليله فهم، والآية القرآنية بناء وتفسيرها فهم، والنص الأدبى أو المقالة

([1]) نظرية التبعية فى التحليل النحوي، للدكتور سعيد حسن بحيرى، ط1، مكتبة الأنجلو 21 .

الأدبية بناء وشرحهما فهم، وكل هذه الأفهام تتحول بمجرد تدوينها فى صورة جمل إلى أبنية تحتاج إلى من يفهمها.

وهذا البحث محاولة للوقوف على العلاقة بين بناء الجملة وفهمها من خلال بعض النصوص التى تعنى بذلك، وشروحها التى عنيت بفكرة النص المشروح نفسها ولو لم ينوه أو يشر الشارح إلى أن هذا النص شرح أو تحليل لذلك وسأقوم بتطبيق ذلك على فاتحة الكتاب فهى أعظم سورة فى القرآن وهى السبع المثانى ولأنها اشتملت على أنواع التوحيد، ولما فى جملها القصار من إعجاز وإحكام فى البناء على الرغم من قلة عدد مفرداتها وقصر جملها وآياتها ومع هذا الإيجاز فى البناء نجدها اشتملت على معان عظيمة تحير العقول، وهذه مزية فريدة وشكل عجيب من أشكال إعجاز القرآن الكريم الذى تحدى الله به البشر، " وتسمى أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له، إما لمبدئيتها له، وإما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم .. وتسمى الكنز .. وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء " [1] وهذه المشتملات هى (التفصيلية) وهى أحد الروابط المعنوية فى فاتحة الكتاب .

أولاً : البناء :

(أ) المناسبة المعجمية :

لابد لأى بناء لغوى محكم من تناسب معجمى بين مفرداته بحيث تتناسب كل مفردة مع ما قبلها أو ما بعدها معجميا أو مع ما تتعلق به هذه المفردة وظيفيا فيتم بهذا التعليق المعنى المقصود، وبين مفردات فاتحة الكتاب تناسب معجمى فريد يجعل بناء جملها أكثر تماسكا وإحكاما، ومن ثم يتماسك بناء السورة كلها، وليس المقصود بالمناسبة المعجمية المعنى المعجمى المفرد لكل مفردة على حدة ، فاستخدام الكلمة فى الجملة بمعناها المعجمى ليس مسوغا للتناسب والانسجام بينها وبين غيرها من المفردات، ذلك أن هناك فرقا بين المعنى المعجمى والمناسبة المعجمية، أما المعنى المعجمى فهو معنى الكلمة خارج السياق وهو ما نراه بين دفتى كل معجم، وأما المناسبة المعجمية فهى علاقة بين المفردات

([1]) تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لقاضى القضاة أبى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى 951 هـ الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث ، بيروت 8/1 ، وانظر البيضاوى 5/1.

داخل الجمل يتناسب فيها المعنى المعجمى لكل مفردة مع المعنى المعجمى للمفردة المترابطة معها أو المتعلقة بها، فلو قلنا جاءت الشجرة وأثمر الإنسان، لانتفت المناسبة المعجمية فى الجملتين؛ لأن الشجرة لا تجىء، والإنسان لا يثمر، فإذا قلنا جاء الإنسان وأثمرت الشجرة تحققت المناسبة واستقام المعنى، والبسملة – فى رأى قراء مكة والكوفة والشافعى – [1] آية من فاتحة الكتاب وفيها من المناسبة المعجمية ما ليس بخفى؛ ذلك أن الاسم فى قول ربنا " بسم الله " إما مشتق من الوسم وهو العلامة وهذا مذهب الكوفيين وإما مشتق من السمو بمعنى العلو وهذا مذهب البصريين، والراجح أن الاسم مشتق من السمو بمعنى العلو ؛ يدل على ذلك قولهم فى جمعه أسماء وأسامى ، وفى تصغيره سُمَيّ [2] وعلى الرأى القائل بأن الاسم مشتق من السمو نجد مناسبة معجمية رائعة بين كلمة اسم ولفظ الجلالة (الله).

وقد بين القرطبى هذه المناسبة عندما قال فى تفسيره: " فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول: لم يزل الله – سبحانه – موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم (أى بالعلو) ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة " [3] والله هو الإله الذى يُؤْلَهُ إليه أى يُرجع إليه ويعبد، وقيل إنه مشتق من العلو والارتفاع فالعرب كانت تقول لكل شيء مرتفع (لاها)، فكانو يقولون للشمس إذا طلعت لاهت أى ارتفعت [4]. وهو ما يعبر عنه قول ربنا: (فتعالى الله عما يشركون) [5] أى علا وارتفع بنفسه لا بغيره، فكلمة (اسم) ولفظ الجلالة (الله) بينهما مناسبة معجمية منطقها العلو والارتفاع، ومن الأدلة على ذلك أيضاً أن الآية الأولى من سورة الأعلى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [6] أضيف فيها كلمةرب إلى كلمة اسم وأردفتا بكلمة الأعلى وهنا يتبادر سؤال إلى الذهن هل الأعلى صفة لرب أو لكلمة اسم ؟

([1]) اختلف الأئمة فى شأن البسملة فى أوائل السور الكريمة فقيل إنها ليست من القرآن وهو قول ابن مسعود وغيره وقيل إنها آية من القرآن وقيل إنها آية من كل سورة وقيل آية من الفاتحة مع كونها قرآنا فى سائر السور؛ انظر تفصيل ذلك فى تفسير أبى السعود 8/1، والقرطبى92/1، 93، والبيضاوى 5/1 .

([2]) انظر: إملاء ما من به الرحمن للعكبرى 4/1 ، والبحر المحيط 123/1، والقرطبى 101/1.

([3]) تفسير القرطبى 101/1 ، وانظر: البيان فى غريب إعراب القرآن للأنبارى 33/1 .

(4) انظر: إملاء ما من به الرحمن للعكبرى 5/1 ، والبحر المحيط 124/1 – 125 والقرطبى 102/1–103 .

([5]) الأعراف 190 .

([6]) الأعلى 1 .

الحق أن (الأعلى) اسم مقصور وهو مما يقدر عليه العلامة الإعرابية أى أن الكلمة تصلح صفة لكليهما، وإن أعربها الجمهور [1] صفة لرب، على اعتبار أن الرب أعم من الاسم وصفة الأعم تنسحب منطقا على الأخص لأنه جزء منه، أى هو البالغ النهاية علواً ورفعةً، ذاتا واسما باعتبار أن كلمة الأعلى تصلح صفة منصوبة لكلمة (اسم) أو مجرورة لكلمة (رب) أى أنهما تتنازعان الصفة، والعلو وصف لكل منهما، وهذا منطق المناسبة بينهما حيث لا توجد قرينة مبنية تبين إعراب كلمة الأعلى، بخلاف قول ربنا "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " [2].

وقول ربنا: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [3] فكلمة (وجه)، وكلمة (ذى) فى الآية الثانية صفة مرفوعة بالواو لكلمة (وجه)، وكلمة (ذى) فى الآية الثانية صفة مجرورة لكلمة (رب)، والعلامة الإعرابية هنا قرينة مبنية. وعن مناسبة العلو بين اسم ولفظ الجلالة يقول أبو السعود القاضى " وقيل أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع أطلق على الفاعل مبالغة وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد فى قولنا لا إله إلا الله ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلا كاف فى ذلك [4].

وعن المناسبة المعجمية بين لفظ الجلالة (الله) واسمى (الرحمن الرحيم) فمعلوم أن (الله) هو اسم ربنا الأعظم الذى لايُسمى به أحد سواه وهو يشتمل على أنواع التوحيد: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، فالله هو المعبود وهو الخالق المدبر وله الأسماء الحسنى المتضمنة فى اسمه الأعظم. وباستقراء الآيات القرآنية التى ورد فيها لفظة (الرحمن) نجدها تضمنت مع الرحمة وهو المعنى الأشهر – معنى السيطرة والعظمة المتناسبة معجمياً مع اسم الله الأعظم، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [5]ويقول سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[6] أى المسيطر عليهم الرحمن وهم العابدون له والإضافة للملكية

([1]) انظر: البحر المحيط 458/8 .
([2]) الرحمن 27.
([3]) الرحمن 78 .
([4]) تفسير أبى السعود 10/1 : وانظر البيضاوى 6/1و7 .
([5]) الرحمن 1–4 .
([6]) الفرقان 63 .

(السيطرة)، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [1] كما نلحظ اقتران العبادة باسم الرحمن فى ثلاث الآيات السابق ذكرها، ويتمثل ذلك فى كلمات (علم القرآن) و(عباد) و (اسجدوا)، فالقرآن مناط العبادة، وكلمة (عباد) جمع لكلمة (عبد) إذا قصدت العبادة، فإذا قصدت السيطرة تجمع الكلمة على (عبيد) بقول سبحانه:﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [2] والسجود من أجل القربات إلى الله وهو أقرب ما يكون العبد من ربه، وبدلالة (الرحمن) على العبادة نجد مناسبة معجمية بينه وبين اسم الله الأعظم منطقها العبادة والسيطرة، ومعلوم أن (الرحيم) من الرحمة وهذا رأى كثير من العلماء [3] وبينه وبين (الرحمن) مناسبة معجمية مناطها هذا المعنى الجليل، والمناسبة المعجمية بين (الرحمن) و (الرحيم) هى أوضح أشكال التناسب المعجمى فى البسملة .

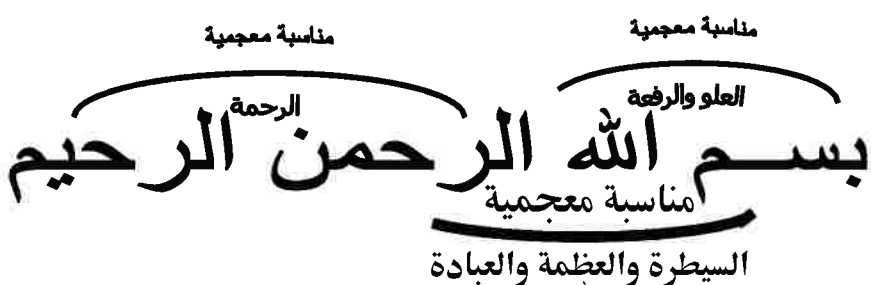

يقول الآلوسى: " بين الله والرحمن من المناسبة ما ليس بينه وبين الرحيم فلهذا قدم الرحمن على الرحيم بيان ذلك أما أولا فلاقتران الرحمن بالجلالة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [4] وقد يشعر هذا الاقتران بجعلهما للذات ... وأما ثانيا فلأن فى الله وفى الرحمن ألفين ألف الذات وألف العلم والأولى فى كل خفية والثانية ظاهرة " [5] .

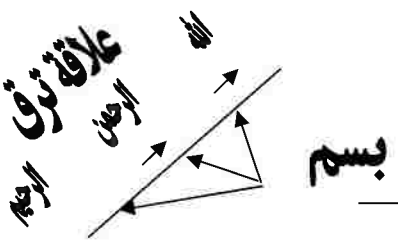

([1]) الفرقان 60 .
([2]) فصلت 46 .
([3]) انظر: البحر المحيط 16/1 – 17 .
([4]) الإسراء 110 .
([5]) روح المعانى 64/1 .

" ولما افتتح سبحانه وتعالى كتابه بالبسملة، وهى نوع من الحمد ناسب أن يردفها بالحمد الكلى الجامع لجميع أفراده البالغ أقصى درجات الكمال فقال جل شأنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (1) والحمد كما هو معلوم أعم من الشكر (2) فهو فى السراء والضراء ولسبب ومن غير سبب، ومن هنا تناسب عموم الحمد مناسبة معجمية رائعة مع عموم التوحيد فى لفظ الجلالة، واللام بينهما للاستحقاق أى أن الذى يستحق الحمد فى السراء والضراء هو الله، فيُحمد معبودا ويحمد خالقاً ومدبراً ورازقاً ويُحمد بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العُلا، وُرب كل شيء مالكه، والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة (3)والرحمن الرحيم " (4) اسمان أيضا من أسماء الله الحسنى يجمعهما فى الآية الكريمة مناسبة معجمية هى الرحمة.

وقد جاء فى البسملة والتوحيد أراه المناسبة المعجمية الكبرى فى قول ربنا (الحمد لله رب العالمين* الرحمن الرحيم) لأن هاتين الآيتين اشتملتا على أنواع التوحيد الثلاثة وهى الألوهية والربوبية، والأسماء والصفات، فالله هو الإله المعبود الذى يؤله إليه، والرب هو المالك المدبر، والله والرب والرحمن والرحيم جميعها من أسماء الله الحسنى وعن المناسبة المعجمية بين رب العالمين والرحمن الرحيم يقول القرطبى " وصف نفسه تعالى بعد (رب العالمين) بأنه (الرحمن الرحيم) لأنه لما كان فى اتصافه بـ (رب العالمين) ترهيب قرنه بـ (الرحمن الرحيم) لما تضمن من الترغيب "(5).

التوحيد

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

ألوهية ربوبية

الأسماء والصفات

وفى كلمة (رب) مزية فريدة بإضافتها إلى كلمة العالمين، لاشتمالها على نوعين من أنواع التوحيد هما الربوبية والأسماء والصفات، فرب العالمين خالقهم ومدبر شئوهم،

---

(1) روح المعانى 67/1

(2) انظر الفروق اللغوية 45 .

(3) مختار الصحاح (ر . ب . ب) وانظر تفسير أبى السعود 13/1، والبيضاوى 8/1 ، والقرطبى 136/1 .

(4) الفاتحة 3 .

(5) القرطبى 1 /139 .

وهم أصناف كثر وكل صنف منهم عالم، والرب اسم من أسماء الله ولابد لكل عالم من خالق مدبر هو رب العالمين جميعا، ولذا أضيفت رب إلى العالمين .

ومن المناسبة المعجمية فى قول ربنا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [1] أن كلمة (مالك) أو (مَلِك براوية قالون) [2] تتناسب مع ما قبلها معجميا بمناسبة توحيد الأسماء والصفات فالمَلِك اسم من أسماء الله الحسنى، وتتناسب مع ما بعدها بالإضافة إلى يوم الدين يوم الحساب أو الجزاء إذ لا مَلِك فى هذا اليوم إلا الله سبحانه وتعالى، فهو ملك الملوك وقد جاء فى سورة غافر ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [3] والحديث فى الآيتين عن يوم الجزاء، وثمة تناسب من نوع آخر بين هذه الآية وما قبلها وما بعدها وهى مناسبة الترتيب وفى ذلك يقول أبو حيان الأندلسى: " الترتيب القرآنى جاء فى غاية الفصاحة لأنه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبية وصفة الرحمة ثم ذكر شيئين أحدهما ملكه يوم الجزاء والثانى العبادة فناسب الربوبية للملك والرحمة للعبادة ، فكان الأول للأول والثانى للثانى " [4] فكيف يحاسب الله العباد إلا إذا كان مالكا لهم ملكا عليهم ومالكا لهذا اليوم العظيم وملكه ومليكه.

ومن الإعجاز أن المفردات تتناسب فى هذه الآية معجمياً ونحوياً ودلالياً أى بجميع أنواع المعنى ، معجميا من خلال تناسب المعانى المعجمية للألفاظ، ونحويا لأن الإضافة هنا معناها الملكية المتناسبة مع المعنى المعجمى ومن ثم فإن دلالة السياق أو معناه الدلالى الأكبر أن الله هو الملك فى يوم الحساب، وكما أن لكل عالم ربا كذلك لكل شىء مالك ومليك هذا اليوم لا شك أنه الله . وفى قول ربنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [5] وما بعده مناسبة معجمية ، فالعبادة لا تكون إلا لله والاستعانة لا تكون إلا به " وقد ورد (هَدَى) فى الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه: معدى بنفسه كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [6] ومعدى باللام كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا

([1]) الفاتحة 4 .

([2]) وقد روى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قرأ مَلْك (بسكون اللام) وأصله ملك ففيه خمس قراءات: مالك ومَلْك وملك وملِك وملاك، انظر البيان فى غريب إعراب القرآن للأنبارى، تحقيق طه عبدالحميد طه 35/1 .

([3]) غافر 16 .

([4]) البحر المحيط 133/1

([5]) الفاتحة 5 .

([6]) الفاتحة 6 .

لِهَذَا﴾ [1] ومعدى بإلى كقوله تعالى: ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [2] وهدى واهتدى بمعنى " [3] .

وقد استأثرت فاتحة الكتاب بالفعل المتعدى بنفسه، وبين اهدنا ونستعين مناسبة، فاهدنا " بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال كيف أعينكم فقالوا اهدنا " [4] " واتصال (نا) بـ (اهد) مناسب لنعبد ونستعين لأنه لما أخبر المتكلم أنه هو ومن معه يعبدون الله ويستعينونه سأل له ولهم الهداية إلى الطريق الواضح " [5].

واستئثار الفاتحة بالفعل المتعدى بنفسه أنسب وأبلغ لأنه آكد وأقوى من الفعل المتعدى بالجار من جهة وقوع الفعل على المفعول وفى ذلك مناسبة معجمية فالطريق يُهدَى إليه ولابد له من هاد، والهادى هو الله، لمن يستحق الهدايةبتدبر أنواع التوحيد الواردة فى السورة الكريمة، ولا يكون الصراط صراطا إلا إذا كان مستقيما، وقد وصفت كلمة الصراط فى الآية الكريمة بالمستقيم لتأكيد الهداية إلى هذا الصراط المستقيم أو الطريق القويم وهو صراط الذين أنعم عليهم الله سبحانه وتعالى بالهداية والتدبر من المسلمين المتقين وثمة مناسبة معجمية بين الصراط المستقيم والإنعام، فأكبر نعمة من الله بها على عباده الصالحين هى هدايتهم إلى الصراط المستقيم أو الطريق الواضح الذى لا عوج فيه وهو الإسلام وهذه النعمة هى لغير المغضوب عليهم من اليهود الذين أعرضوا عن الحق تكبراً وحسداً، ولا للضالين من النصارى البعيدين عن جادة هذا الصراط المستقيم " ومعنى (غير) معنى (لا) فلذلك رُدت عليها (ولا) " [6] وهذا أيضا من المناسبة المعجمية .

مع ما بين المغضوب عليهم والضالين من مناسبة عدم الإنعام، ومن المناسبة فى السورة ما يسمى (تناسب التسجيع) [7] فى أواخر الآي، ومنه أيضاً انتهاؤها بالمقطع[ص ح ح ص] فى الكلمات (العالمين) و (الرحيم) و (الدين) و (نستعين) و (المستقيم) و (الضالين) عند الوقف على رءوس الآى .

([1]) الأعراف 43 .
([2]) ص 22
([3]) مختار الصحاح [هـ . د . ى]
([4]) البيضاوى 10/1
([5]) البحرالمحيط 147/1 .
([6]) معانى القرآن للفراء، عالم الكتب (بيروت- لبنان)، الطبعة الثانية 1980، 8/1 .
([7]) البحر المحيط 152/1- 153 .

(ب) العلاقات النحوية :

جاء آنفا أن بانى الجملة يركب مجموعة من المفردات المعجمية مستعينا بقوانين النحو التى تلزم لذلك، فالنحو هو انتحاء طرائق العرب فى التركيب ومعناه اتباع القوانين التى تحكم الكلام العربى بحيث تكون مقياساً لكل من يريد أن يركب كلاماً، إذ إن التركيب هو التعبير الصحيح عن علم النحو[1] فالإعراب لا يحصل إلا بسبب العقد والتركيب[2] والتركيب شرط حصول موجب الإعراب [3]، والباء فى البسملة حرف جر مبنى على الكسر لا محل له من الإعراب، وكلمة (اسم) مجرورة بها وعلامة جرها الكسرة الظاهرة، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف، عند البصريين المحذوف مبتدأ، والجار والمجرور خبره والتقدير: ابتدائى باسم الله، أى كائن به والباء متعلقة بالكون، وقال الكوفيون: المحذوف فعل تقديره: ابتدأت أو أبدأ، والجار والمجرور فى موضع نصب بالفعل المحذوف [4].

فعلى تقدير البصريين تكون جملة البسملة اسمية ن وعلى تقدير الكوفيين تكون الجملة فعلية " وقدر الزمخشرى – فعلا غير بدأت وجعله متأخراً قال تقديره بسم الله أقرأ أو أتلو إذ الذى يجىء بعد التسمية مقروء " [5]وهذا يتناسب مع قول ربنا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [6] ومعلوم أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستقرار، والجملة الفعلية التى فعلها مضارع تفيد التجدد، وإبقاء المتعلق وحذف المتعلق به شكل من أشكال الإعجاز فى البسملة للدلالة على المعنيين الثبوت والتجدد، فالبسملة ثابتة متجددة، ثابتة من الناحية العقدية لأنها فاتحة كل أمر، ومتجددة من الناحية التطبيقية أو التصديقية لتجدد قولها عند الشروع فى أى عمل، وعلى الإيمان بكليهما حثنا الإسلام، والرحمن والرحيم صفتان للفظ الجلالة أو بدلان منه، وعلنا نلحظ هنا أن العلاقة النحوية بين الرحمن الرحيم ولفظ الجلالة هى علاقة الوصف أو البدلية، والمناسبة المعجمية كما جاء آنفا بين هذه الأسماء هى توحيد الأسماء والصفات، وهذا ما قصده

([1]) انظر: فقه اللغة فى الكتب العربية ، للدكتور عبد الراجحى 209 .
([2]) انظر: المفصل فى علم العربية 24 .
([3]) انظر: شرح الكافية 33/1
([4]) انظر: إملاء ما من به الرحمن 4/1 ، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم 9 .
([5]) البحر المحيط 1/ 127
([6]) العلق 1 .

عبد القاهر الجرجانى بالتعليق، فالعلاقة الكبرى فى البسملة هى علاقة تربط بين توحيد الأسماء والصفات، وإعراب هذه الأسماء نعوتا أو صفات، أو هى علاقة التوافق بين المناسبة المعجمية والوظيفة النحوية .

وآية (الحمد لله رب العالمين) [1] جملة اسمية بسيطة مكونة من مبتدأ، وخبر شبه جملة، والجملة الاسمية تفيد الثبوت لدلالة أن الحمد ثابت لله سبحانه واللام بينهما للاستحقاق والجملة غير مؤكدة بـ (إن) وعدم تأكيد الكلام أحيانا يكون أبلغ وآكد من تأكيده، فالذى يحتاج إلى التأكيد دائما هو الشيء غير المؤكد، والحمد آكد لله سبحانه ولا حاجة هنا للتأكيد وهو أبلغ، وكون الخبر شبه جملة يؤيد ذلك لأنه يعرب متعلقا بخبر محذوف: تقديره كائن أو مستقر، أى أن الحمد كائن لله أو مستقر له ولا حاجة معه لتأكيد، وحسن التركيب هنا أدى إلى حسن البناء، ووقع آية الحمد بدون (إن) على النفس أقوى لاتساقها مع ما قبلها وما بعدها، وما قيل فى إعراب " الرحمن الرحيم " [2] صفتين أو بدلين من لفظ الجلالة يقال هنا مع ما بينهما من علاقة التوافق بين المناسبة المعجمية والوظائف النحوية، والإضافة فى (رب العالمين) معناها الربوبية التى هى دليل عقلى يفضى بالناس إلى الألوهية لأن معرفة أن الله خالق مدبر تحتم على الناس عبادة هذا الخالق المدبر الذى يدبر شئونهم .

والإضافة فى قول ربنا " مالك يوم الدين " [3] معناها النحوى الملكية التى يقدرها النحاة بحرف (اللام) أى مالك لهذا اليوم وأراها أيضا بمعنى (فى) أى مالك فى يوم الدين، فالوظيفة النحوية للإضافة هنا متعددة لأنها بمعنى (اللام) وبمعنى (فى)، وهنا شكل آخر من أشكال الإعجاز فى الفاتحة وهو احتمال الإضافة هنا لمعنيين نحويين، يترتب عليه تعدد فى المعنى الدلالى فقد يكون مالك الشيء غير موجود فيه بيد أن الله مالك هذا اليوم، وتواترت الأخبار والأدلة على وجوده سبحانه وتعالى فيه؛ والمعنيان مقصودان فى الآية الكريمة، يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [4] وفى قول ربنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [5] تقديم واجب للمفعول به؛ لأنه ضمير منفصل لو

([1]) الفاتحة 2
([2]) الفاتحة 3
([3]) الفاتحة 4
([4]) مريم 95
([5]) الفاتحة 5

تأخر لَزِم اتصاله، فلو أُخر المفعول لَزِم الاتصال فيُقال " نعبدك "، وثمة علاقة هنا يتضافر فيها النحو والبلاغة، فقد قال سيبويه وهو يذكر الفاعل والمفعول:" كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم " [1] وتقديم المفعول فى الآية للاهتمام، وهو ما يسميه علماء البلاغة قصراً " ليكون أدل على الاختصاص، وللترقى من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عيانا والمعقول مشاهدا والغيبة حضوراً " [2] (الالتفات)، فالعبادة مقصورة على الخالق ، والبناء النحوى فى الآية بليغ متماسك، وما قيل فى العبادة ينسحب على الاستعانة به سبحانه وتعالى، والتركيب واحد، ولا عجب أن يتضافر فى هذه الآية الموجزة جداً المناسبة المعجمية مع البناء النحوى المتماسك وبلاغة الأسلوب لتبين المعنى المقصود " وقرنت الاستعانة بالعبادة للجمع بين ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى وبين ما يطلبه من جهته، وقدمت العبادة على الاستعانة لتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة لتحصل الإجابة " [3] .

وقد ورد الفعل (اهدِ) فى الفاتحة متعديا بنفسه وهو ما يسمى فى النحو الفعل المجاوز أو غير القاصر، وهو الذى يصل إلى المفعول بغير حرف جر؛ ليقع الفعل على المفعول مباشرة، وهو أمر غرضه الدعاء، فناسب الفعل – وهو يفيد التجدد – الدعاء المقصود، وتجدد قراءة الفاتحة فى كل صلاة يترتب عليه تجدد الدعاء، والعلاقة المباشرة بين الفعل المتعدى والوصول إلى مفعوله بغير واسطة تناسب العلاقة بين الهداية والصراط فالوصول إلى الصراط أو الهداية إليه لابد أن تكون مباشرة مستقيمة لا عوج فيها كما كان تعدى الفعل إلى المفعول مستقيما بغير واسطة، والإضافة بين " صراط " و " الذين أنعمت عليهم " بمعنى اللام أى تفيد الملكية أى أن هذا الصراط هو للذين ينعم الله سبحانه وتعالى وعليهم بالإسلام لا للمغضوب عليهم ولا الضالين .

(ج) الربط المادى :

الربط قرينه من القرائن لا تقل أهمية عن غيرها من القرائن فى إحكام السبك أوصياغة الجملة؛ لأنه كما قال عبد القاهر الجرجانى يجعل الكلام " يأخذ بعضه بحُجَز

([1]) الكتاب 1 /34

([2]) تفسير البيضاوى 9/1 .

([3]) البحر المحيط 1/ 142 – 143

بعض " [1] وذلك بأن " تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول " [2]، وهو نوعان مادى ملفوظ ومعنوى ملحوظ، ويتمثل الملفوظ المادى فى أدوات الربط وغيرها كالضمائر وعناصر المطابقة والإعراب، ويتمثل المعنوى فى العلاقات الكبرى المدركة بين الجمل، والروابط المادية التى اشتملت عليها فاتحة الكتاب وقامت بدور الوصل بين المفردات والجمل تتمثل فى حروف الجر والإضافة والتبعية والضمائر والموصول، فالباء فى البسملة ربطت بين المحذوف (إن كان اسما أو فعلا) و "اسم الله "، وهى تفيد الاستعانة [3] أى أبدأ مستعينا باسم الله، أو ابتدائي مستعين به، فحروف الجر تربط بين الاسم والاسم أو بين الفعل والاسم، واللام بين الحمد ولفظ الجلالة رابط بين الاسم والاسم فلا يقال (الحمد الله) بدون اللام لانتفاء الربط، وغرضها الاستحقاق كما جاء أى الذى يستحق الحمد هو الله .

وفى قوله تعالى " أنعمت عليهم " [4] ربط حرف الجر " على " بين الفعل " أنعم " والضمير " هم " إذ لا يقوى الفعل " أنعم على الوصول إلى المفعول بنفسه فيتصدى الرابط لهذه المهمة، والإضافة (التجاور بين المضاف والمضاف إليه) رابط مادى جاء فى الفاتحة فى ستة مواضع هى (باسم الله)، و (رب العالمين)، و (مالك يوم الدين) و (صراط الذين) و (غير المغضوب عليهم) ولا تخرج الإضافة عن كونها بمعنى (من) أو (فى) أو (اللام) والإضافة فى معظمها للملكية بمعنى اللام فالاسم لله، والرب للعالمين، والله مالك ليوم الدين، والصراط للذين أنعم الله عليهم من المسلمين، والتبعية فى الفاتحة شكل من أشكال الربط المادى، فالوصف علاقة مادية ظاهرة تربط بين الصفة والموصوف، والبدل كذلك ثمة علاقة بينه وبين المبدل منه، فالرحمن والرحيم صفتان للفظ الجلالة فى البسملة أو بدلان منه و (رب العالمين) بدل من لفظ الجلالة، والرحمن والرحيم صفتان أوبدلان فى الفاتحة وكذلك (مالك يوم الدين)، وكلمة (المستقيم) صفة للصراط، و (صراط) الثانية بدل مطابق من (صراط) الأولى وكل ذلك من أشكال الربط المادى فالوصف من باب إعادة اللفظ بمعناه، وإعادة اللفظ من طريق المعنى شكل من أشكال الربط المادى

([1]) دلائل الإعجاز 78 .

([2]) دلائل الإعجاز 78 .

([3]) من العلماء من ذكر أنها للمصاحبة، والاستعانة أرجح وأمس بقوله تعالى (إياك نستعين)، انظر: البحر المحيط 126/1 .

([4]) الفاتحة 7 .

فى اللغة العربية، والبدل المطابق هو من باب إعادة اللفظ للتحدث عنه مرة أخرى أو هو من باب إعادة الذكر، وإعادة الذكر رابط مادى أيضاً، هذا ومن أنواع التبعية العطف، فالواو فى قول ربنا " إياك نعبد وإياك نستعين " [1] عطفت قصر العبادة على الله على قصر الاستعانة به سبحانه، والواو بين (المغضوب عليهم) و (الضالين) عطف نسق كذلك، عطف من خلاله بين المغضوب عليهم والضالين فى عدم الإنعام والهداية إلى الطريق الواضح المستقيم، والواو من أوضح الروابط المادية فى اللغة العربية وأكثرها استخداما للربط بين المفردات والجمل، والموصول واحد من الروابط المادية فى فاتحة الكتاب، وقد جاء فى الفاتحة فى موضع واحد " صراط الذين أنعمت عليهم " [2]، فالاسم الموصول (الذين) ربط بين (صراط) و (أنعمت عليهم)، والضمائر أيضا أحد الروابط المادية الظاهرة فى السورة الكريمة، وعود الضمير هو مناط ذلك الربط، ومنها الضمير (إياك) وهو واجب التقديم لانفصاله، والالتفات فيه شكل من أشكال الربط بين ما قبله وما بعده، والضمير المتصل (نا) فى (اهدنا) إحالة إلى الضمير المستتر فى (نعبد ونستعين) والضمير (هم) فى (عليهم) الأولى عائد على (الذين)، وفى (عليهم) الثانية إحالة إلى المغضوب عليهم، وفى كل ما تقدم من الضمائر أو المحيلات نجد مطابقة بينها وبين ما عادت عليه، والمطابقة شكل من أشكال الربط المادى الظاهر أيضاً .

ومن خلال ما تقدم نلحظ كيف تضافرت المناسبة المعجمية مع العلاقات أو القوانين النحوية، وأدوات الربط المادية الظاهرة فى إحكام بناء فاتحة الكتاب، فجاءت جملها محكمة المبانى على إيجازها، وهو الذى يسعى إليه بناة الجملة، ولا يصل منهم إلى الهدف المنشود إلا من له دربة ودراية فى توظيف ذلك كله ، ولا مقارنة بين بناء رب العالمين وبناء البشر .

ثانياً : الفهم :

(أ) الربط المعنوى :

إذا كان الربط المادى أحد وسائل بناء الجملة، فإن فهم الروابط المعنوية ضروري جداً لفهم معنى الجملة، وذلك بإدراك العلاقات التى تربط معنويا بين مفرداتها المعجمية، وعن مفهوم الربط المعنوى يقول الدكتور سعيد حسن بحيرى: " كثيرا جدا ما يوجد

---

(1) الفاتحة 5 .
(2) الفاتحة 7 .

ربط بلا أداة ربط، حيث لا يجب أ ن يشار إلى الرابط مورفولوجيا بشكل مستمر، ذلك أن مفهوم الربط أكثر اتساعا من مفهوم أداة الربط، كما لا يمكن أن تبحث الروابط منفصلة عن الربط " [1] فالربط المعنوى ربط علائقى يُدرك بالعلاقات التى ليس لها وجود مادى، هذه العلاقات تقوم بدور الربط بين عناصر الكلام وتجعل منها كلا مفهوماً متناسقاً، وهذا الربط المعنوى ملحوظ ليس ملفوظا ويعرف الربط العلائقى لدى بعض النحاة بالارتباط وهو نشوء علاقة نحوية سياقية بين معنيين دون واسطة لفظية أو هو أشبه بعلاقة الشيء بنفسه، ومعنى هذا أن الارتباط قرينة معنوية وأن الربط قرينة لفظية وأن الارتباط علاقة موجودة بالفعل وأن الربط علاقة توجد بالقوة [2].

وكان عبد القاهر من أوائل من تنبه لهذا الفرق بين الارتباط والربط عندما قال: "بأن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول " [3]، فالربط المعنوى أو الارتباط معناه العلاقات التفاعلية التى تحكم بناء الجملة دون وساطات لفظية، كالتفسيرية، والسببية، والتفصيل، وتقدير الحذف، أما التفسيرية فمعناها أن الشيء بالشيء يفسر، وقديماً قال المفسرون " القرآن يفسر بعضه بعضا "، وليس بالضرورى أن تفسر الجملة أو الآية بجملة أو آية أخرى فى نفس النص بل إن الأمر أوسع من ذلك، فقد تفسر بعض الجمل أو الآيات بجمل أو آيات أخرى فى نصين مختلفين متباعدين، فعندما يقول ربنا سبحانه وتعالى قال الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [4]، هذه الآية يفسرها قول ربنا سبحانه فى سورة الفجر: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5] فالملائكة مصطفون بانتظار أوامر الله ولا يستطيع واحد من البشر أن ينفذ من هذه الصفوف المتراصة المحكمة.

وعندما يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾[6] يتبادر سؤال إلى الذهن: كيف ذلك، واليوم يوم حساب ؟ والتفسير فى نفس

([1]) نظرية التبعية فى التحليل النحوى 100 .
([2]) انظر: نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، للدكتور مصطفى حميدة 15 .
([3]) دلائل الإعجاز 78 .
([4]) الرحمن 33
([5]) الفجر 21-22
([6]) الرحمن 39

النص ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[1] فالتفسيرية إحدى علاقات الربط المعنوية التى تربط بين المبانى المعبرة عن المعانى ربطاً غير ملفوظ أو غير مرئى، وهى عندى أوسع من قول المفسرين " القرآن يفسر بعضه بعضا "، إذ يمكن تلخيص فكرة التفسيرية فى أن (النصوص ومحيطاتها يفسر بعضها بعضا) حيث لا يقتصر الأمر على النصوص، فمسرح الحدث والتجربة الشعرية وأسباب النزول ليست جزءاً من النص [2] إلا أنها تتدخل بشكل كبير فى تفسير النصوص وشرحها أو فى الوصول إلى المعنى الدلالى الأكبر.

وقد يكون التفسير إشارة أو صمتاً، فالبكر تستأذن فى نفسها، وإذنها صمتها، والصمت هنا أبلغ من القول والتعبير، لأنه تفسير للإجابة بغير لفظ، والعلاقة التفسيرية بين البسملة وفاتحة الكتاب علاقة معنوية أو رباط معنوى رائع فالبسملة فاتحة الفاتحة وفاتحة كل أمر " ولهذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيها رواه عنه أبو هريرة وأخرجه الحافظ عبد القادر الرهاوى " كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بباسم الله فهو أبتر "[3] وبيان ذلك فى القرآن نفسه، فعندما شرع نوح فى ركوب السفينة التى أمره الله سبحانه بصناعتها بأعينه ووحيه قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [4]، وقد قالت ملكة سبأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [5] وثمة ارتباط معنوى إيجابى رائع بين علاقتين من علاقات الربط المعنوى فى البسملة وهما التفسيرية وتقدير الحذف، فعندما قدر النحاة أو العلماء المتعلق به المحذوف فى البسملة قدروه بـ " أَبْدأُ " أو ابتدائى " وهذا يتناسب مع أن البسملة هى فاتحة أو ابتداء كل أمر، وعن التفسيرية فى آية الحمد فإن اللام فى (الحمد لله) للاستحقاق أي الذى يستحق الحمد هو الله سبحانه وتعالى، ولكن لم يستحق الحمد ؟ لأنه رب العالمين خالقهم والمنعم عليهم ومدبر شئونهم وأرزاقهم، فعلاقة التفسيرية هنا جلية بين مبانى الآية، وهذه العلاقة تتعدى مفردات الآية ومبانيها إلى كل آيات الإنعام فى القرآن الكريم، فكل آيات الإنعام هى

([1]) الرحمن 41

([2]) على الرغم من أنها نصوص مستقلة مكتوبة ترتبط بالنص المفسر .

([3]) روح المعانى 66/1 وانظر البيضاوى 6/1 .

([4]) هود 41 .

([5]) النمل 29 – 30 –31 .

تفسير للسؤال السابق ولآية الحمد ذاتها، فنعم الله لا تحصى وكل نعمة من هذه النعم تستوجب حمد الله والثناء عليه، وثمة علاقة هنا بين التفسيرية والسببية وكلاهما من علائق الربط المعنوى، والسببية هى علاقة يتوصل من خلالها إلى الشيء بغيره، والنعم أحد أسباب الحمد.

وإذا نظرنا إلى كل آيات القرآن الكريم التى تبدأ بقوله تعالى (الحمد لله الذى) نجدها تتحدث عن الحمد متلوا بسبب من أسبابه ففى سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ﴾ [1] وفى سورة الأعراف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذي هَدَانَا لهَذَا وَمَا كُنَّا لنَهْتَدي لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [2] وفى إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذي وَهَبَ لي عَلَى الْكبَر إسْمَاعيلَ وَإسْحَقَ﴾ [3] وفى الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهَ الَّذي أَنزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ﴾ [4] فلكل هذه الأسباب نحمد الله سبحانه وتعالى، والعلاقة فى آية الحمد بين التفسيرية والسببية رائعة تتضح من خلال الآيات التى تتحدث عن النعم فى القرآن الكريم، فهى تفسير الحمد وسببه وعن التفسيرية فى قول ربنا " مالك يوم الدين " [5] فقد جاء فى سورة غافر: ﴿لمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للَّه الْوَاحد الْقَهَّار﴾ [6] وعن قصر العبادة على الله فى قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين" يقول ربنا فى سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُون﴾ [7]، والتفسيرية فى قول ربنا: ﴿اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ﴾ [8] مرتبطة بكل آيات الهداية فى القرآن الكريم فكل هذه الآيات تتحدث عن أن الهادى هو الله ولا هادى غيره، والآيات كثيرة جداً لا يتسع المقام لسردها، وبينها وبين هذه الآية علاقات تفسيرية وتناص .

وفاتحة الكتاب هى تفصيل للحمد الذى هو الثناء على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله وهى تفصيل لأنواع التوحيد: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات وتفصيل لطوائف العباد

([1]) الأنعام 1 .
([2]) الأعراف 43 .
([3]) إبراهيم 39 .
([4]) الكهف 1 .
([5]) الفاتحة 4 .
([6]) غافر 16 .
([7]) الذاريات 56
([8]) الفاتحة 6

من المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين، والتفصيل هذا يرتبط ارتباطا وثيقاً بكل آى الكتاب العزيز التى تتحدث عن أنواع التوحيد، وحمد الله والثناء عليه وطوائف العباد .

وجاء تقدير الحذف فى فاتحة الكتاب فى خمسة مواضع أولها تقدير المحذوف فى البسملة بـ (أبدأ) أو (ابتدائى) وثانيها تقدير مبتدأ محذوف بـ (هو) عند قطع النعت عن المنعوت فى قول ربنا: (الرحمن الرحيم) سواء فى البسملة أو فى فاتحة الكتاب ويكون إعراب الرحمن والرحيم خبرين لمبتدأ محذوف، ويمكن فى نفس الموضع إعراب الرحمن مفعولا به لفعل محذوف تقديره (أمدح) [1]، والثالث تقدير خبر محذوف فى قول ربنا: (الحمد لله) بكائن أو مستقر يتعلق به الجار والمجرور وأرى أن تقدير المحذوف هنا كائن أو مستتر أو مستحق، والرابع الفاعل المستتر وجوبا الذى تقديره (نحن) فى قوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين " [2] ففاعل الفعلين نعبد ونستعين مستتر تقديره (نحن) و الخامس الفاعل المستتر وجوبا فى الفعل اهدنا وتقديره (أنت)، وتقدير كل هذه المحذوفات من الروابط المعنوية فتقدير (أبدأ) أو (ابتدائى) ربط بين المقدر المحذوف والجار والمجرور (بسم) وإلا لما تعلق الجار والمجرور بشىء، ولتأكيد " أنه موطن ينبغى ألا يقدم فيه سوى ذكر الله تعالى، فلو ذكر الفعل .. لم يكن ذكر الله مقدما " [3] وعند قطع النعت عن المنعوت تعرب (الرحمن) خبر مرفوعا، أو مفعولا به منصوبا لفعل تقديره أمدح وفى كلا التقديرين ربط معنوى فإذا قدرنا (هو) فذلك إقرار بتوحيد الأسماء والصفات أى هو الرحمن الرحيم، وإذا قدرنا (أمدح) فثمة تناسب فى المعنى بين (الحمد لله) (وأمدح الرحمن) فحمد الله هو المدح أو الثناء على الله بما هو أهله وإن كان الحمد أعم، ولذا كان تقدير الحذف رابطا معنويا هنا، وثمة رباط معنوى رائع بين استتار (نحن) فى الفعلين نعبد ونستعين، واستتار (أنت) فى الفعل (اهد) أو بين (نحن) و (أنت) من عدة أوجه: أولها تقديم المستتر (نحن) فى الجملة على المستتر (أنت) لأن العبادة من البشر هى التى توصل إلى الهداية من الله، ثانيها أن العلاقة بين (نحن) و (أنت) هى علاقة العباد برب العباد وهو التوحيد الذى تتحدث عنه فاتحة الكتاب، ثالثها اقتران (نحن) بالعبادة والاستعانة واقتران (أنت) بالهداية وهذا ديدن العباد فى الكون عبادة لله وتوكل عليه أو استعانة به ثم الهداية من عند الله سبحانه يهدى إليه من يشاء .

([1]) " نصبهما أبو العالية وابن السميقع وعيسى بن عمر ورفعهما أبو رزين العقيلى والربيع بن خيثم وأبو عمران الجونى ... والنصب والرفع للقطع " البحر المحيط 132/1 .

([2]) الفاتحة 5

([3]) البحر المحيط 129/1 .

(ب) قرائن التعليق :

القرائن فى اللغة العربية نوعان لفظية ومعنوية، وقد جاء فى حاشية العليمى على شرح التصريح على التوضيح [1] أن أهم قرائن منع البس القرينة اللفظية نحو ضرب زيد عَمرا (يقصد الإعراب)، وقتلت سلمى موسى (يقصد أن اتصال الفعل بالتاء دليل لفظى على أن الفاعل فى الجملة هو سلمى)، والمعنوية كأرضعت الصغرى الكبرى، وأكل الكمثرى موسى (ويقصد هنا القرينة العقلية فدائما الكبرى هى التى ترضع الصغرى ومن شأن الكمثرى أن تكون مأكولة أى مفعولا وليس فاعلاً وإن تقدمت على الفاعل)، ونوع القرائن الذى يسهم فى فهم الجملة هو القرائن المعنوية، كقرنية الإسناد، وقرينة التبعية، والإضافة، والحال، والعهد، وكلا النوعين اللفظية والمعنوية يتضافر مع غيره من القرائن فيفهم كل منهما من خلال فهم الآخر، وقد يقول قائل إن التبعية والإضافة جاءا ضمن الروابط اللفظية المادية، أمادية هى أم معنوية ؟.

وأقول ثمة أشياء تدخل فى البناء والفهم معاً ومنها التبعية والإضافة، فجعل المضاف والمضاف إليه فى الجملة فى تركيب أفقى بناء، ومحاولة التوصل إلى العلاقات بينهما فهم، ووصف الكلمة أو توكيدها أو أن تبدل منها كلمة أخرى كل ذلك يجريه البانى، والذى يحاول الفهم يبحث عن العلاقات بين هذه التوابع ومتبوعاتها، يقول عبدالقاهر الجرجانى: " معلوم علم الضرورة أن لن يتصور أن تكون للفظة تعلق بلفظة أخرى من غير أن تعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك.

ويراعى هنالك أمر يصل إحداهما بالأخرى [2] " والقرينة العقلية هى أوضح قرائن التعليق فى فاتحة الكتاب، فبالعقل عرفنا الأدلة الكونية الدالة على وجود الله، وبالعقل نميز أن خالق هذه الموجودات ومقدر هذه الأكوان هو الذى يستحق الحمد، وبالعقل عرفنا أنه رب العالمين، ومدبر حياتهم، وبالعقل نصل إلى أن الذى يَخلق ويَرزق هو الذى يُعبد ولا أحد غيره وهو المستعان، وهو الذى يدعى فيجيب وله الأسماء الحسنى والصفات العلا، وقد حثنا ربنا سبحانه وتعالى على فهم الأشياء والتدبر فيها من خلال هذه القرينة العقلية، وكل الآيات القرآنية التى تشتمل على تصاريف التفكر والتدبر والتذكر دليل على ذلك وهى كثيرة جداً فى القرآن الكريم منها: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

([1]) انظر شرح التصريح على التوضيح بحاشية العليمى 281/1 .
([2]) دلائل الإعجاز 263 .

لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [1] ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [2] ودليل الحث على إعمال هذه القرينة فى تفسير القرآن وفهم العلاقات بين مبانيه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [3].

والإسناد قرينة معنوية من قرائن التعليق فى فاتحة الكتاب ومعناه نسبة شيء إلى شيء آخر، والمسند إليه فى الجملة الاسمية هو المبتدأ والمسند هو الخبر، وفى الجملة الفعلية المسند إليه هو الفاعل والمسند هو الفعل، فيتحدث فى الجملة الاسمية عن المبتدأ بالخبر، ويتحدث فى الفعلية عن الفاعل بالفعل، وكلا الفعل والخبر وصف أو خبر فى المعنى، أى أن بين الجار والمجرور (بسم) والمقدر المحذوف (ابتدائى) علاقة إسناد، وبين (الحمد) والجار والمجرور (لله) علاقة إسناد وبين (نعبد) والمستتر (نحن) علاقة إسناد وكذلك فى جملة (نستعين)، وبين الفعل (اهد) والمستتر وجوبا (أنت) علاقة إسناد، وكل هذه الإسنادات فى فاتحة الكتاب هى قرائن تعليق، ينسب فيها المسند الخبر إلى المسند إليه المبتدأ، وينسب فيها المسند الفعل إلى المسند إليه الفاعل.

ومن قرائن التعليق أيضاً قرينة العهد، والعهد معناه فى الجملة الاسمية الشأن أى من شأن المبتدأ أن يكون معروفاً للمتكلم والسامع ومن هنا اشترط النحاة أن يكون المبتدأ معرفة أو نكرة واللبس معها مأمون، ومن شأن الخبر أن يكون معروفا للمتكلم (المخبر بالخبر) مجهولا للسامع (المخبَر بالخبر) وهذا معنى الإفادة التى هى مطلب من مطالب الاتصال اللغوى بين البشر، ولذا اشترط للكلام النحوى الإفادة لأنها المطلوب منه، وفاتحة الكتاب تبدأ بـ (الحمد) وهو معروف للمتكلمين والسامعين لأنه من ألفاظ العرب والقرآن نزل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [4] أى بلغة عربية واضحة لا غموض فيها ولا لبس، وأما الخبر الذى يريد أن يخبر به رب العزة سبحانه وتعالى هو أن الحمد لله كائن أو مستقر أو مستحق له؛ لأنه رب العالمين ولأنه الرحمن الرحيم، أما التبعية فهى قرينة من قرائن التعليق تشمل الوصف والبدل والتوكيد فعندما نتحدث عن تراص أو تجاور الموصوف والصفة أو المبدل منه والبدل أو المؤكَد والمؤكِد بشكل أفقى فذلك من

([1]) البقرة 219

([2]) آل عمران 190.

([3]) النساء 82 .

([4]) الشعراء 195 .

أعمال بناة الجملة الذين يركبون هذه المفردات أفقيا قاصدين معنى معيناً ويتركون محاول الفهم يفهم حسبما يشاء أو وفق القوانين المقررة فى عقله، وقد يصيب معنى البانى وقد يخطئه بحسب وضوح العلاقات بين المفردات أو غموضها، أى أن التجاور الأفقى شكل من أشكال التركيب وكون الكلمة صفة أو بدلاً أو توكيداً فهذا ربط مادى ظاهر، أما فهم العلاقات الكبرى بين هذه المفردات أو التى تتخلل هذه الإجراءات فهذا هو التعليق المقصود هنا، فهو أكبر من مجرد تركيب أفقى أو تجاوز مفردات، ويتخطاه إلى ما هو أعمق من ذلك كله، فالعلاقة بين لفظ الجلالة (الله) واسمى (الرحمن والرحيم) أكبر من مجرد كونهما صفتين أو بدلين من لفظ الجلالة، وإنما هى علاقة كبرى وصلنا من خلالها إلى معنى أكبر هو التوحيد ومعرفة الأسماء والصفات .

(ج) المعنى الدلالى الأكبر :

المعنى الدلالى الأكبر هو الهدف الأول الذى يسعى إليه اللغويون من بناة وفهامين ، وهو حصيلة ثلاثة أشياء هى المعنى المعجمى والمعنى الوظيفى والمقام أو مسرح الحدث أو أسباب النزول فى القرآن الكريم، ويكاد يسهم كل ما تم تناوله من مناسبة معجمية أو علاقات نحوية أو ربط أو ارتباط أو تعليق فى التوصل إلى المعنى الدلالى الأكبر لفاتحة الكتاب وهو اشتمالها على أنواع التوحيد الثلاثة وهو سر عظمتها.

ولذا قال عنها النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى من حديث ابن المعلى: " الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته " [1] ويستخلص المعنى الدلالى الأكبر من إنعام النظر فى سياقين هما سياق المقال وسياق الحال (المقام) أما سياق الحال أو (المقام) فهو كل ما يحيط بالنص المكتوب ويسهم فى الوصول إلى المعنى، ويمكن (لتطبيق كيف يتوصل إلى المعنى الدلالى الأكبر) تقسيم فاتحة الكتاب إلى ثلاث جمل كبرى نفهم من خلالها المعنى الدلالى الأكبر لفاتحة الكتاب كاملة بوصفها وحدة واحدة متماسكة من خلال هذه المتضافرات السابقة.

وليس معنى ذلك أن كل هذه الإجراءات تسهم مجتمعة فى فهم كل جملة، فقد يكتفى ببعضها فى التوصل إلى المعنى الدلالى لجملة ما، ويسهم بعضها الآخر فى التوصل إلى المعنى الدلالى لجملة ثانية وهكذا.

وسيتضح ذلك بالتطبيق الآتى :

([1]) صحيح البخارى كتاب التفسير 97/3 ، وباب فاتحة الكتاب 228/3 .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ *) [1]

1- المناسبة المعجمية: تناسب فيها عموم الحمد وهو أعم من الشكر مناسبة معجمية رائعة مع عموم التوحيد فى لفظ الجلالة واللام بينهما للاستحقاق، وتناسب اسما (الرحمن الرحيم) بمناسبة توحيد الأسماء والصفات مع الله ورب العالمين ومالك يوم الدين (الملك)، وتناسب (مَلِك) بمناسبة " توافق الابتداء والاختتام فى قوله " ملك الناس " [2] .

2- النحو أو التركيب: (الحمد) مبتدأ و (لله) جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف، وما بعدهما نعوت أو أبدال والجملة الاسمية تفيد الثبوت، أى أن الحمد ثابت مستقر لله.

3- الربط المادى: اللام بين الحمد ولفظ الجلالة ربطت بينهما، وتجاور المضاف والمضاف إليه أفقيا فى (رب العالمين) نوع من الربط الظاهر، وكذلك التجاور بين النعوت أو الإبدال ومتبوعاتها فى الجملة .

4- الربط العلائقى: آية الحمد ترتبط بعلاقات وثيقة بكل الآيات التى تتحدث عن نعم الله فى الإنسان وفى الكون وبينها وبين هذا الآيات علاقات تفصيلية وتفسيرية .

5- العهد (الإسناد): من شأن المبتدأ أن يكون معروفاً للمتكلم والسامع كليهما ومن شأن الخبر أن يكون معروفا للمتكلم مجهولا للسامع، والخبر مسند إلى المبتدأ " أى الحمد المعروف بينكم لله " [3] .

6- المعنى الدلالى الأكبر: من خلال ذلك كله نتوصل إلى أن الذى يستحق الحمد هو الله سبحانه وتعالى، لأنه الخالق والرازق والحمد ثابت لله فى جميع الأحوال وهو مستحق له سبحانه وأن أنواع التوحيد ثلاثة الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [1]

1- المناسبة المعجمية: العبادة لا تكون إلا لأله والاستعانة لا تكون إلا بإله وهو الله سبحانه وتعالى لا إله غيره .

2- النحو والتركيب: (إياك) مفعول به وهو ضمير منفصل يجب تقديمه ولو تأخر اتصل، و (نعبد ونستعين) فعلان مضارعان استتر فيهما الفاعل (نحن) وجوباً،

([1]) الفاتحة 2-3-4 .
([2]) البحر المحيط 138/1 .
([3]) البحر المحيط 131/1 .
([4]) الفاتحة 5 .

والفعل المضارع يفيد التجدد فالعبادة لله وستكون لله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتكرار (إيا) لقصد العبادة والاستعانة معاً على الله وحده .

3- الرتبة: تقدم المفعول به على الفعل والفاعل للاهتمام والقصر أى قصر العبادة على الله وحده، والتقديم واجب للتنبيه " على أن العابد ينبغى أن يكون نظره إلى المعبود أولا وبالذات ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه " [1] .

4- الربط المادى: الضمير (إيا) ربط ربطا رائعا – من خلال الالتفات (وهو التحول من الغيبة إلى الخطاب) – بين جزأى السورة الكريمة، " ذلك أنه لما ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك لليوم المذكور أقبل الحامد مخبراً بأثر ذكره الحمد المستقر له منه ومن غيره أنه وغيره يعبده ويخضع له " [2] .

5- الإسناد: فى الفعلين نعبد ونستعين فاعلان مستتران وجوباً يسند إليهما فعلا العبادة والاستعانة .

6- الربط العلائقى: بين هذه الآية والآيات التى تتحدث عن العبادة فى القرآن الكريم علاقات تفسيرية وسببية وتناص وكذلك بينها وبين أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم التى تتحدث عن ذلك .

7- المعنى الدلالى الأكبر: هو قصر العبادة والاستعانة على الله سبحانه وتعالى، وتكرار (إيا) لقصدهما معاً، وأن العبادة هى التى توصل إلى الاستعانة ومن ثم الإجابة .

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) [3]

1- المناسبة المعجمية: الصراط يهدى إليه ولا بد له من هاد، ولا يكون الصراط صراطاً إلا إذا كان مستقيماً، والصراط المستقيم يتناسب مع المنعم عليهم وليس مع المغضوب عليهم ولا الضالين .

2- النحو والتركيب: الفعل (اهد) متعد بنفسه أى يصل إلى المفعول به مباشرة بغير وساطة أو بغير حرف الجر كذلك العلاقة بين الهداية والصراط لابد أن تكون مباشرة مستقيمة لا عوج فيها .

---

(1) البيضاوى 10/1 .
(2) البحر المحيط 141/1 .
(3) الفاتحة 6-7 .

3- الربط المادى: الضمير (نا) فى (اهدنا) إحالة إلى الضمير المستتر (نحن) في (نعبد ونستعين)، والإحالة ربط مادى ظاهر والضمير (هم) فى عليهم عائد على (الذين).

4- الإسناد: بين الفعل (اهد) والفاعل المستتر وجوباً (أنت) علاقة إسناد مفادها أن الهداية تسند إلى الله سبحانه وتعالى .

5- الربط المعنوى: هاتان الآيتان بينهما وبين آى الكتاب العزيز علاقات تفسيرية وتناص يقول الله تعالى " إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء " [1] ويقول سبحانه وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " [2] .

6- المعنى الدلالى الأكبر: أن الله يهدى إليه من يشاء فهو الهادى الذى يهدى إلى الصراط المستقيم وهذا الصراط للذين أنعم عليهم الله سبحانه وتعالى بالهداية وليس للمغضوب عليهم ولا الضالين .

ويكون المعنى الدلالى الأكبر لفاتحة الكتاب إجمالاً أن الحقيق بالحمد هو الله الأحد لكونه تعالى رب العالمين موجدهم والمنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ولأنه مالك أمورهم يوم الدين .

الخلاصة :

1- بانى الجملة ومحاول فهمها يحتاج كل منهما إلى المعنى المعجمى والمعنى الوظيفى (النحوى) أو القواعد النحوية المقررة بالإضافة إلى كل ما يحيط النص وهو المقام للتوصل إلى المعنى الدلالى الأكبر، بيد أن الأول يحتاج إلى هذه الثلاثية للكتابة أو البناء، والثانى يحتاجها للفهم أى أن وسائل أو آليات العمل واحدة والهدف مختلف.

2- عندما يحاول الناقد أو المحلل فهم الجملة أو نقدها يترجم ذلك كله فى صورة جمل هى بدورها مبان تحتاج إلى من يفهمها، وبذلك تستمر هذه الثنائية المتلازمة بين البناء والفهم بدون توقف، وبذلك يمكن القول إن البناء فهم والفهم بناء .

3- ثمة فرق بين المعنى المعجمى والمناسبة المعجمية، أما المعنى المعجمى فهو معنى الكلمة خارج السياق وهو ما نراه بين دفتى كل معجم (وليس معنى ذلك أن الكلمة خارج السياق لا معنى لها بل لها معنى مقرر بحسب الأصل، وقد يتغير هذا المعنى عند

([1]) القصص 56 .
([2]) الأنعام 153 .

الاستعمال)، والمناسبة المعجمية هى علاقة بين المفردات يتناسب فيها المعنى المعجمى لكل مفردة مع المعنى المعجمى للمفردة المتراكبة معها .

4- الربط المعنوى أو الارتباط معناه العلاقات التفاعلية التى تحكم بنـــاء الجملـــة دون وساطات لفظية .

5- المناسبة المعجمية والقواعد النحوية أو المعانى الوظيفية وأدوات الـــربط الظـــاهرة والارتباط والتعليق أو تنسيق دلالات الألفاظ فى العقل كل ذلك يوصل إلى المعـــنى الدلالى الأكبر لأى سياق مقالى .

6- لا تقوى قرينة بعينها أو فكرة من الأفكار السالف ذكرها بمفردها على الوصول إلى المعنى الدلالى الأكبر لأى نص، فالمعنى الأكبر يتوصل إليه بتضافر كل هذه الأفكار والإجراءات .

7- ينبغى أن تفهم النصوص وفق العلاقة بين البناء والفهم بالسير فى خطين متـــوازيين أحدهما للبناء والآخر للفهم، وصولاً إلى العلاقة بينـــهما، ومـــن ثم الوصـــول إلى الأهداف الكبرى لهذه السياقات المقالية .

*** *** ***